توماس ايرو كرومبي

كواليس القضية اليمنية

كواليس القضية اليمنية

بقلم :

توماس ايبروكرومبي

(عضو هيئة التحرير بمجلة (ناشيونال جيوغرافيك) الأمريكية – ١٩٦٤م)

ترجمة :

نشوان زيد علي عنتر

٢٠٠١م

اليمن[1]

الإسم الرسمي : الجمهورية العربية اليمنية[2] .

نظام الحكم : جمهوري ، لكن القوات الملكية الموالية للإمام مازالت تتحصن في الجبال الشمالية و الغربية .

المساحة : تقدر ٧٥ ألف ميل مربع (١٩٥ ألف كم٢) .

السكان : خمسة ملايين نسمة .

اللغة : العربية .

الدين : مسلمون زيدية و هم طائفة من الشيعة و يتركزون في المرتفعات ، أما الصحراء و السهول الساحلية فينتشر فيها المسلمون الشافعية [3].

[1] اليمن الذي يتحدث المؤلف طوال هذا التحقيق هو اليمن الشمالي فقط (المترجم)

[2] لم يذكر المؤلف خانة عاصمة البلاد ألا وهي صنعاء (المترجم) .

الإقتصاد : ٩٠% يعملون في الزراعة و الرعي .

الصادرات : البن .

بداية المشوار

تأهب ثلاثة جنود مصريين ببنادقهم الشبه أتوماتيكية ليكونوا مرشدين لي أثناء عبوري لشوارع مأرب المظلمة المقفرة بعدما كانت هذه المدينة الصحراوية فيما مضى عاصمة لمملكة سبأ المذكورة في كتب التاريخ ، أما الآن فلم تعد أرض الرجال في يمن الحرب الأهلية الدائرة حتى هذه اللحظة بين الطرفين الجمهوري و الملكي .

(أبق عينيك مفتوحتين هذه الأيام ! اليمني المسلح نادرا ما يفقد سلاحه ، و لدينا حاليا مشكلة مع إثنين من الهاربين إختفوا قبل البارحة) هذا التحذير تلقيته من ضابط شاب في الفرقة المصرية المرافقة لي المذكورة سلفا يدعى مرسي فاروق حسبو و هو من حراس الحصن التركي القديم في مدينة مأرب حاملا بندقية رشاش بين يديه و نحن نواجه في طريقنا الخطر المحدق بنا في أرجاء مدينة تنتظر مصيرها المحتوم بعدما إنتشرت القوات المسلحة المصرية في المدن و السهول

---

[٣] المؤلف إرتكب عدة أخطاء في خانة الدين حيث جعل الزيدية يشكلون غالبية سكان البلاد و هم أقلية بنسبة ٣٤% مقابل الشوافع بنسبة ٦٤% ، فضلا عن أنه جعلهم من الشيعة و هم ليسوا بشيعة و لا بسنة و بإباضية بل هم مذهب جديد و طائفة جديدة ، إضافة إلى عدم ذكره للديانة اليهودية و أتباعها المقيمين في محافظتي عمران و صعدة (المترجم) .

اليمنية لدعم الجمهورية الوليدة في مواجهة القوات الملكية الموالية للإمام المخلوع البدر المدعومة من قبل السعودية بالأسلحة و الجنود المرتزقة رغم صعوبة حصولهم عليهما بشق الأنفس .

تأسست الجمهورية العربية اليمنية في السادس و العشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م إثر إنقلاب عسكري قاده مجموعة من ضباط الجيش الصغار بقيادة رئيس الجمهورية المشير عبدالله السلال [٤] ضد الإمام البدر أدى إلى الإطاحة به بعد أسبوع من توليه الحكم خلفا لوالده الإمام أحمد المتوفي في التاسع عشر من نفس الشهر حيث حاصرت دباباتهم الأسوار الخارجية لقصره الملكي (دار البشائر) ، أما هو فيقال أنه هرب من هناك متخفيا بزي إمراة صنعانية عجوز (الستارة) ليلتحق بأنصاره المحصنين في الجبال الشمالية بينما عدوه اللدود السلال صار رئيسا للجمهورية .

لم أر لافتات تحذير حول الخطر القادم منتشرة في أنحاء سوق مأرب العام بنوافذه الداكنة الملطخة بالطين التي تبنى بيوت المدينة منها حيث تتألف بعضهن من خمس عالية للغاية و لا يزال النساجون يتواجدون في كل ركن فيه حيث يتم عادة

[٤] ثورة ٢٦ سبتمبر التي يسميها إنقلابا كغيره من الغربيين كانت بقيادة الملازم علي عبد المغني وليس السلال (المترجم) .

في أفضل الأحوال بيع البضائع مقابل عربون ، أما الحدادين فلا يتوقفون عن إصدار الأصوات المزعجة عند طرقهم المجوهرات الفضية إلى جانب الجمال المحملة بالبضائع المتنوعة و النساء التاجرات دون أن يمنعهن حجابهن من الإختلاط بزبائنهن من كلا الجنسين و المؤذن يصرخ بأعلى صوته من على منارة المسجد يؤذن للصلاة و الكلاب تنبح نباحا مزعجا في الليل و النهار ، أما الآن فإن المدينة تطبق في صمت رهيب حولها إلى غابة موحشة خالية من الحياة .

الكفاح المسلح يوحد ولاء اليمنيين

فجأة ، سمعت أصواتا غريبة قادمة من أعلى ، فما لبث أن أمسك فاروق بالزناد خلال سيرنا الحذر حول المكان ، فإذا بنا نتواجه مع ستة رجال قبائل مسلحين هاربين من إحدى المعارك الدائرة نحونا حيث كانوا متفاجئين مثلنا (حلفتكم بسم الله و الجمهورية ألا تطلقوا النار علينا ، لقد قطعنا مسافات طويلة على هذه الطريق الموحشة قادمين من بني ضبيان كي تساعدونا في القضاء على الإمام و حكمه البغيض) هكذا صرخ قائدهم علينا راجيا بجلبابه اليمني التقليدي و المكون من ثوب طويل كالقفطان مع أكمام مثنية و حزام واسع مطرز (عسيب) يتوسطه خنجر مزخرف (الجنبية) و

تطوق كتفيه أحزمة من الذخيرة ، و في إحدى يديه يحمل خفي صندل و في الأخرى بندقية عيار ٣٠٣ ، و تتوسط عيناه الداكنتين القاسيتين تحت حاجبين أسودين ينتهيان بتقاسيم على وجهه الصحراوي الكئيب المفعم بتجاعيد طويلة الشعر و المحاط بلحية فاحمة لفحته أشعة الشمس الحارقة و رمالها القاحلة .

قذف الضابط فاروق بعلبة سجائر مصرية نحوي فشعرت بالإرتياح قبل أن يستأنف القبيلي القادم من بني ضبيان[٥] حديثه معنا و هو يطيل النظر إلى الحصن الذي قدم منه (بهذه الطريقة كان يضمن الإمام بها ولاء القبائل له ، أما الآن فلقد أصبح ولدي حرا طليقا و لم يعد رهينة لأي إمام كان ، لذا فأنا بكل فخر أقاتل في سبيل الجمهورية) .

ليس جميع الناس يتفقون مع وجهة النظر هذه ، فتلكم التلال القريبة من مأرب الواقعة على مرمى أنظارنا سيضحي سكانها القبائل بأرواحهم في سبيل النظام الملكي ، و خلال إقامتي في إحدى الأرياف الموالية للملكيين كنت أصغي إلى العبارة ذاتها بحذر شديد (الإمام ليس ملكنا فحسب بل هو زعيمنا الروحي المقدس ، لذا فالثورة عليه ثورة ضد الله عز و جل) .

[٥] منطقة شمال محافظة صنعاء (المترجم) .

عبـــرت مســـافرا أنحـــاء الجمهوريـــة الجديـــدة و لا ســـيما الخارجـــة عـــن ســـيطرتها ، فعلـــى الـــرغم مـــن إســـتيلاء القبائـــل الملكيـــة علـــى الـــتلال المجـــاورة لمدينـــة مـــأرب بـــدعم مـــن الســـعودية إلا أن مـــدرجاتها الجبليـــة و حقولهـــا الخضـــراء علـــى جـــانبي الطريـــق إســـتهوتني كمـــا فتنـــت بصـــحاريها الجـــرداء حيـــث زرت علـــى دروبـــه الـــوعرة مـــدنا عديـــدة مثـــل صـــنعاء عاصـــمة الـــبلاد التـــي ترتفـــع حـــوالي ثلاثـــة آلاف متـــر فـــوق مســـتوى ســـطح البحـــر ثـــم المخـــا الميناـــء التـــاريخي للـــبلاد بعـــدما أعطـــى للقهـــوة إســـمه الشـــهير و أخيـــرا مـــأرب المليئـــة بالمعابـــد الأثريـــة المعبـــرة عـــن مجـــد ســـبأ القـــديم و حضارتها الغابرة .

الحدود المنتهية عند الربع الخالي

الـــيمن ، ذلـــك الجـــزء الصـــغير الأكثـــر إخضـــرارا و خصـــوبة فـــي شـــبه الجزيـــرة العربيـــة يطـــل علـــى الســـواحل الجنوبيـــة الغربيـــة مـــن البحـــر الأحمـــر و تنتهـــي حـــدوده الشـــرقية الغيـــر مرســـومة عنـــد صـــحراء الربـــع الخـــالي ، و يقطـــن معظـــم ســـكان الأريـــاف البـــالغ عـــددهم خمســـة ملايـــين نســـمة فـــي الجبـــال و الهضـــاب المرتفعـــة و إقلـــيم تهامة الممتد على سهل ساحلي ضيق .

جغرافيا اليمن القديمة

سيطرت سبأ فيما مضى على طرق القوافل التجارية الممتدة من سواحل حضرموت المطلة على البحر العربي حتى ميناء غزة المطل على البحر المتوسط ، فمنذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد كانت مملكة سبأ عبارة عن قبائل بدوية أضحت تمارس الزراعة في مناطقها قبل أن تتوسع خارج نطاقها الجغرافي و تؤسس دولة متحدة قوية مترامية الأطراف ، فما كادت تستقر سياسيا حتى صارت بفضل الزراعة و التجارة و الضرائب أغنى دولة مفعمة بالنشاط و الحيوية في شبه الجزيرة العربية ، بعد ذلك أنشأ السبئيون عام ٦٥٠ ق.م سدا كبيرا لتخزين مياه الأمطار و معه نظام ري متكامل يجتاز من خلاله وادي أذينة[٦] و يروي الأراضي الزراعية المحيطة بمدينة مأرب قبل أن ينتصر الحميريون عليهم و يحلوا محلهم و يضحوا أقوى دولة في جنوب الجزيرة العربية منذ عام ١٠٠ ق. م [٧] لينخفض لاحقا سير القوافل التجارية و أهميتها الإقتصادية بعد سيطرة الرومان على البحر المتوسط ، و قد أسدل الستار على هذا السد عندما جرفه فيضان هائل دمره إلى الأبد فترة

[٦] يقصد وادي أذنه الذي يعبر منه سيل الخارد من الشرق (المترجم) .

[٧] يقصد المؤلف عام ٢٧٥ م حيث تمكن الملك الحميري ياسر يهنعم من الإستيلاء على عاصمة مملكة سبأ مأرب من آخر ملوكها نشأ كرب يامن يهرجب (المترجم) .

الحكم الإثيوبي لليمن أواخر القرن السادس الميلادي [٨]حيث لم يبق منها سوى أعمدتها الصخرية شاهدة على ذلك الزمن الغابر تزحف نحوها الرمال المتحركة من كل حدب و صوب[٩]

.

أصر علي الضابط حسبو على عدم مغادرة سبأ دون زيارة معبد المقه الشهير ، و هكذا في اليوم التالي و بعد صلاة الفجر طوينا أوراقنا و حقائبنا و كاميراتنا و وضعناهم على متن سيارته العسكرية الروسية الصنع قبل أن نصعد إلى مقعدها الأمامي و معنا جنديين و عالم أزهري مسلم قدم من القاهرة و إلتحق بالجيش المصري يدعى الشيخ عبدالمجيد سليم .

خاضت عجلات سيارتنا العسكرية غمار رملة السبعتين[١٠] أو رمال سبأ حيث إندهشت من أرضها العريقة التي على الرغم من شهرتها الموغلة في القدم إلا أنها تعاني من قلة الكشوف الأثرية فيها ، فأشهر ملوكها الذين حكموا بلادها الغنية بالثروات الملكة بلقيس بإسمها التقليدي المذكور في التوراة زارت الملك سليمان في فلسطين (سفر الملوك العاشر) ((

---

[٨] لم يذكر أن والي اليمن الحبشي أبرهة قام بإصلاحه و ترميمه و إفتتاحه عام ٥٤٥م خلال إحتفال مهيب حضره معظم ملوك العالم أو ممثلين عنهم كما مذكور في نقش أبرهة العظيم أو CIH 541 (المترجم) .

[٩] لا يفرق المؤلف بين أعمدة معبد المقه و سد مأرب و يخلط بينهما (المترجم) .

[١٠] صحراء يمنية كبيرة ممتدة من حضرموت حتى مأرب و الجوف و كانت تعرف في العصور الوسطى و لاسيما العصور الإسلامية منها بمفازة صيهد (المترجم) .

..... قيادتهم رائعة للجمال المحملة بأطنان كثيرة من الذهب الخالص و الأحجار الكريمة دون أن يأتوا بالكثير من التوابل و البهارات ، مثل هذه الأشياء السالفة الذكر أهدتها بلقيس ملكة سبأ إلى الملك سليمان)) .

البساتين العامرة بالموالح قبل زوالها إلى غير رجعة

المرة الوحيدة التي حدثت لكشف أسرار مأرب الدفينة كانت في العام ١٩٥١م عندما قامت بعثة أثرية بالحفر و التنقيب في معبد المقه تحت حراسة جنود الإمام حيث وجدوا بها تماثيل برونزية و رأسا من البلق و و نقوشا محفورة على السور الذي بني حول المعبد عام ٦٥٠ ق. م و سرعان ما أضحى الحراس المرافقين للبعثة ودودين مع عناصرهم بعدما كانوا شكاكين و خائفين منهم قبل أن يغادروهم بعد أربعة شهور فقط من العمل الشاق و إستنفاذ جميع مستلزماتهم العلمية هناك حيث وصلوا إلى صحراء بيحان (شبوة) و وجدوا فيها معبدا غارقا بين الكثبان الرملية ، فتسلقوا أعلى سور فيه يشكل الخط الخارجي الرئيسي و هو على هيئة كلية بشرية .

قطعت مسافة ١٠٠ قدم (كيلومتر) و قد إمتلأت ثيابي بالرمال ، ثم توجهت مع الشيخ عبدالحميد نحو أعمدة حجرية مستطيلة الشكل كائنة عند مدخل المعبد تنتهي

بزواياها الجميلة كما هي دون ضربها بالمدافع المتحاربة و من حولها النوافذ العشوائية ببنيانها المرصوص مقسمة إلى نويفذات خشبية ثابتة على سورها الحجري لتذكرنا بالحضارة السبئية المنتشرة في هذه الأصقاع النائية [11](لقد أخبرنا القرآن الكريم عن سبأ) هكذا أخبرني الشيخ عبدالمجيد بعدما تلا لي الآية الخامسة عشرة من سورة سبأ (جنتان عن يمين و شمال بلدة طيبة و رب غفور (١٥)) ، على بعد كيلومتر من شمال المعبد يمكنني رؤية الأطلال الجرداء التي كانت مزدانة بالبساتين الشهيرة في يوم من الأيام ، ثم إستأنف الشيخ تلاوته أمامي (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط و أثل و شئ من سدر قليل (١٦)) .

ظلت سيارتنا المصفحة تقعقع خلال عودتنا إلى حصن قديم هدمه سيل العرم منذ عهد سبأ و مازالت ماثلة أمامنا إلى يومنا هذا حيث تقدمت شاحنات عسكرية تحت حماية هيلوكوبتر مجهزة بالرصاص تابعة للملكيين إلى هناك ، و في تلك الأثناء أمكنني الصعود إلى أعمدة سد مأرب حجر زاوية مملكة سبأ ، و في أحد الأيام وقفت على علو ١٤ متر و قطعت واديه الجاف مسافة كيلومترين سيرا على الأقدام قبل أن يمن الله

[11] يبدو أن المؤلف لا يعرف شيئا عما بداخل معبد المقه أو محرم بلقيس ، سيما و أن الأخير ظل مطمورا في الرمال وقت كتابة المقال حتى قيام حفيدة عالم الآثار الأمريكي الراحل أولبرايت فنسنت بإكتشاف ما بجوفه عام ٢٠٠٣م (المترجم) .

علينا بمطر غزير يروي عطشنا الشديد و إن كان قد أعاق وصولنا بسيله المنهمر .

لقد كان الطريق مغلق عند الجبال الذي يتحصن فيه الملكيون و هذه هي المشكلة المستعصية كما أخبرني الضابط حسبوه حيث قامت فيما بعد طائرة هيلوكوبتر تابعة لسلاح الجو المصري بنقلي من مأرب إلى صنعاء ملقيا النظرة الأخيرة على سد مأرب علي سأعود إليها مجددا ، من يدري ؟ لقد كانت تلكم الحدائق الأسطورية كما وصفها القرآن الكريم بصراحة مذهلة للغاية دون أن أرى نهرها العظيم قبل أن يتحول الى بحر من الرمال الجارفة .

كلما تجولت في أرجاء البلاد كلما وجدت نداء الجمهورية أو النظام الجمهوري يصدح في كل مكان يتواجد فيه أنصاره بكثرة مثل هذا سائق ناقلة الجند المتحمس له في تعز يرفع عقيرته بحياتها (جمهورية .... جمهورية) أو عامل البناء في إب يؤيدها و هو يبني السور (جمهورية .... جمهورية ، يعيش السلال و العرب) و كذلك يصنع سائقي الأجرة يزمرون زمارات سياراتهم الجيب المندفعة صوب الشارع يحيون رئيسهم السلال هاتفين بالعمر الطويل له هناك ، إلى جانب تعليق صوره و صور نظيره المصري جمال عبدالناصر المنتشرة

فـــي الأســـواق الشـــعبية و تزخـــرف الـــدكاكين و صـــالونات الحلاقـــة و مفاتيح الأغلال و صناديق الحلويات المزركشة نوعا ما !

العبور من خلال بوابة صنعاء

ذات يـــوم ، وصـــلت إلـــى صـــنعاء فـــي الأول مـــن مـــارس قبيـــل شـــروق الشـــمس عنـــدما إنطلقـــت بســـيارتي اللانـــدروفر مســـرعا صـــوب البوابـــة الرئيســـية لـــدخول هـــذه المدينـــة المحصـــنة (بـــاب الـــيمن) حيـــث تجمـــع أهلهـــا الفضـــوليين حولهـــا و هـــم يشـــاهدون تعليـــق جرسها الكبير الذي سيتم الإنتهاء منه لاحقا .

و أثنـــاء مـــا كنـــت أعيـــد النـــداء كـــي يفســـحوا المجـــال لـــي دوى صـــوت المـــدفع فـــي الفجـــر ، و خلـــف تلـــك البوابـــة كنـــت أصـــغي لجلجلـــة المفـــاتيح و الأقفـــال الفولاذيـــة فـــإذا بجـــانبي ســـائق جمـــل يتثـــأب مـــن شـــدة النعـــاس و هـــو ينـــيخ ناقتـــه علـــى قدميـــه ، فرافقتـــه نحـــو طريـــق ضـــيق يعـــج بالمـــارة الآن مـــن كـــل حـــدب و صـــوب نحـــو بوابتهـــا الحجريـــة يـــديرونها علـــى مفاصـــلها المصـــنوعة مـــن الحديـــد حيـــث رأيـــت راكبـــوا الحميـــر يثبتـــون عليهـــا أكيـــاس الـــدخن و النســـاء يحملـــن الابـــاريق أو القـــدور فـــوق رؤوســـهن مرتـــديات ثيـــابهن الحمـــراء (الســـتارة) و الأولاد الغاضـــبون يضـــربون أغنـــامهم بالعصـــي الخشـــبية كـــيلا تضـــل طريقهـــا إلـــى جانـــب الثـــور الأســـمر

معلم برسم معين حاملا على ظهره أكياسا من الخبز المر (الكدم) ... الخ .

(طريق .... طريق) رددها أمامنا رجل عجوز منحني الظهر يحمل على كتفيه صندوقا ثقيلا كي نفسح له المجال مارا بسرعة من بين الأبواب كما توقعت ، تنقلت هناك مع أحد الرجال المهمين فيها حيث كان عائدا إلى بيته مبكرا دون إحساسه بالوقت ، أما الوضع خارج أسوار المدينة ، فالدبابات و الأليات العسكرية الحديثة تملأ الشوارع ليل نهار ، و مع ذلك غصت في أجوائها التي تعود جذورها إلى يمن القرن العاشر الميلادي ، فبيوتها المبنية من الحجر و الطين مؤلفة من خمس أو ست و أحيانا سبع طوابق فوق شوارع ضيقة للغاية تعج بالحركة و الإزدحام و الإزعاج حيث رفع و شكل معظمها على هيئة دواوين إستقبال يتقابل الرجال فيها عصرا لتدخين الشيشة (النارجيلة) ، فبيوتها الرائعة تضئ ليلا بفضل ألوانها الناصعة البياض و العديد من شرفاتها الخشبية المزخرفة المخصصة للنساء حتى يخفين وجوهن و يشاهدن من خلالها عن كثب ما يدور في الأسفل كل يوم .

في سوق صنعاء ، تجد أمامك كافة المشاجرات في الحال من نواح متبادل و تشابك بالأيدي و صراخ الباعة المتجولين و

هم يبيعون القرفة و الزعفران و حتى عطر الورد ذو الرائحة الزكية و الحلوى الشهية المصنوعة من العسل و السمسم (المضروب) المفضلة لدي حيث إشتريتها من بائع حلويات يبعد الذباب المنتشر حول بضاعته بمنش مصنوع من ذيل ثور أسود ، فضلا عن جمع من العامة يشاهدون بإستغراب شخصا متحمس يجلس على حجر يصدح بآيات قرآنية بإيماءاته البريئة و متسول أعمى يشد كم معطفي راجيا عطفي فأعطيته خمس قطع نقدية و وضعتها في يده و إنطلقت بعيدا عن هنا حيث سمعت طرقا شديدا للحديد قادني إلى سوق الحدادين(المحدادة) أو شارع الحديد الأسود و أشاهد ورشها المعتمة و المكتظة بالدخان المتطاير ، و هناك و تحت طرق المطارق المتواصل للحديد حيث يصبح متلونا ما بين الأحمر و الأصفر عند تشكيل رأس إحدى المعاول بسرعة ، و ما إن يتم الإنتهاء منها يتم إطفاؤها داخل وعاء أجوف مليء بالماء و تسوية ظهرها بنفخ الكير قليلا عليه .

إنتقلت من دكان إلى آخر في هذا السوق المزدحم فإذا بي أجد بطريقي رجلا حافي القدمين يرتدي قفطانا مثبتة إلى الوراء يعتمر عمامة تراثية برتقالية اللون و يساومني على إحدى القطع التي بحوزته و المعروضة للبيع و أجادله على قيمتها

بعربيتي المكسرة (معول جيد ، و حتما تستحق أن أدفع فيها ثمانية بقش)

(سعرها ١٥ بقشة)

(صحيح أنه رائع في صنعته ، لكن الحديد هو الحديد)

(١٥ بقشة ، لا أكثر و لا أقل)

(أريدها لجرف التراب و الرمال و ليس للتنقيب عن الذهب)

(إسمع ، أنا مشغول للغاية ، أما أن تعطني ١٢ بقشة و إلا أعدته إلى الفرن)

(تسعة بقش يعني تسعة بقش)

(إذن ، على بركة الله) .

قد تستغرق عملية تبديل مقابض المعاول ساعة بأكملها بعشر قطع من النحاس ، التجارة في اليمن صعبة للغاية ، فليس لديها عملة رسمية تكون مصدرا لإستقلالها الإقتصادي و تداولها النقدي [١٢] يتداول أهلها عملة الماريا تريزا و المعروفة لديهم بالريال الفرنسي و يساوي ٤٠ بقشة حتى هذه اللحظة ، و هي عملة نمساوية منذ منتصف عام ١٧٠٠م و لا تزال

[١٢] يبدو ان المؤلف لا يعلم بأن اليمن قد صار لديها عملة رسمية بعد الثورة ألا و هي الريال الصادرة عن لجنة النقد اليمنية عام ١٩٦٣م (المترجم) .

تسك في فيينا منذ عام ١٧٨٠م [١٣] و تستخدم في اليمن و الجنوب العربي (اليمن الجنوبي) ، فضلا عن أنها أقوى من الدولار و قطعه الفضية من فئة ٣٠ أو ٤٠ حيث بإمكانك أن تشتري بقطعة واحدة جازولين و بضاعة ثقيلة و علب مجلجلة .

أخرجت قطعة نقود من جيبي و دفعتها إلى بائع الشواء على الزاوية المقابلة لي بعدما تذوقت الكباب اللذيذ المقدم منه إلي ، في تلك الأثناء، لمحت إمراة مرتدية عملات ماريا تريزا حول عنقها ، فغالبا ما ترتدي البدويات عملات الماريا تريزا الفضية حول أعناقهن بعد ثقبهن بسلسلة فضية كنوع من المجوهرات و الحلي الخاصة بهن ، كان البائع مشغولا بحساب نقودي في نصف بقشة بعدما وضع في يدي الفارغة قطعا نحاسية ، أضحت أكياس السراويل التي بحوزتي منتفخه للغاية بشكل لا يدعو إلى الإرتياح .

يشتد الزحام في السوق ظهرا عندما يتوافد الناس إليه من كل حدب و صوب و يأتون لشراء القات الذي يعتبر بمثابة السعادة للفقير اليمني ، فما إن يمضغ أوراقها الخضراء يستعرض لذتها الخفية دون أن يشعر بالثمالة أو السكر ، من

[١٣] لم تعد مستخدمة في النمسا بعدما إستبدلتها بعملتها الرسمية الشلن بعد الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

الجبال القريبة من هنا تنمو أشجارها العملاقة يتم قطافها و تعبئتها ثم بيعها في المدن و القرى المجاورة على ظهور الحمير و الجمال ، كان بقربي بائع قات و قد لطخت أوراقه الخضراء أسنانه المسوسة و المصفرة للغاية من كثرة مضغه لها و معه بضاعته التي باعها للتو قبل أن أخذ لنفسي منه ربطة غير مغطاة مستمعا لشرحه المقتضب حول إدمان الناس لهذه النبتة المخدرة (كما ترى ، يمكن لأي واحد فينا أن يستغني عن الطعام و الماء فترة طويلة ، لكنه لا يمكنه الإستغناء عن القات أو البقاء من دونه) .

اليمني يدمن على التدخين

لو إنتشرت عادة تناول مثل هذه المخدرات في البلاد لأصبح أهلها كسالى حتى النخاع ، ففي كل عصر يزحف اليمنيون ببطء إلى بيوتهم عند توقف القوات المتحاربة عن القتال كي يمضغوا القات لساعات طوال ، ذات يوم دعيت من قبل نبيل يمني يدعى السلطان فضل بن علي بن أحمد العبدلي لزيارته عصرا و هو يمضغ القات بمقر إقامته في قصر الإمام السابق في صنعاء بعدما حولته حكومة الثورة إلى أول فندق حديث

هنـــاك حيـــث كـــان مجتمعـــا بغيـــره مـــن الســـلاطين العبـــدليين[١٤] ينتظـــرون تعييـــنهم مـــن قبـــل رئـــيس الجمهوريـــة عبـــدالله الســـلال فـــي حكومته الثورية .

خلعـــت حـــذائي و دخلـــت مجلســـهم الأرضـــي (ديـــوان) و جلســـت علـــى أحـــد المســـاند المصـــنوعة مـــن الخـــيش (مـــدكى) الممتـــدة عـــرض الجـــدران المدهونـــة بـــالأبيض ، أخـــذت حـــذري مـــن مـــد أخمـــص قـــدمي صـــوب أي مـــن الحاضـــرين بعـــدما وضـــعت ســـاقي فـــي وضـــعية التقـــاطع ، علـــى فكـــرة فـــي الـــيمن عليـــك أن تكـــون متحكمـــا بتصـــرفاتك و لاســـيما عنـــد جلســـات مضـــغ القـــات المكتظة بأغصانها الرفيعة و أوراقها الملفوفة .

(الورق الأحمر الصغير قمة في المذاق)

هكـــذا أخبرنـــي الســـلطان لحظـــة تمريـــره ربطـــة قـــات لـــي و أنـــا أراه يقســـم أوراقـــه بإبهامـــه و ســـبابته و يضـــعها فـــي لســـانه ، تبـــدو لـــي عمليـــة المضـــغ هـــذه غيـــر مريحـــة حيـــث مـــا لبثـــت أن وضـــعتهم بأحـــد خـــدي ثـــم أقضـــمهم إلـــى حـــد الإنتفـــاخ و بعـــد ذلـــك أرطـــبهم بمـــاء بـــارد ، نصـــحني مضـــيفي بشـــرب المزيـــد مـــن المـــاء عارضـــا علـــي دلتـــه الفخاريـــة ، و لإندهاشـــي مـــن كرمـــه الحـــاتمي عـــرض

[١٤] أســرة حكمــت لحــج منــذ أواخــر القــرن التاســع عشــر حتــى ســقوطها علــى يــد ثــوار الجبهــة القوميــة خــلال مقــاومتهم للإســتعمار البريطاني و حلفائهم من السلاطين المحليين عام ١٩٦٧م (المترجم) .

علي أيضا التدخين من قصبته الطويلة الممتدة من قاعدتها الكبيرة إليه مسافة أربعة أمتار و المعروفة في اللهجة الصنعانية بالمداعة (الشيشة) حيث وصفها بكلمة شرب بدلا من تدخين ، و من هنا لاحظت الفرق بين فعلي (يدخن) المتعلق بالسجائر و (يشرب) المرتبطة بالمداعة في اللهجة المحلية .

كنت أتحدث معهم لساعات قليلة و أنا أسمع قرقرة قاعدة المداعة من جراء نفخ الحاضرين و مصهم المتواصل للدخان المتصاعد من البوري (غطاء الشيشة على هيئة تاج ملئ بالتبغ) تخرج من أنوفهم و التبغ الموضوع في البوري يزداد إحمرارا و إشتعالا إثر ذلك مما إعتبرته شيئا غريبا بالنسبة لي .

ظلت ببنادقهم منتصبة في إحدى زوايا الغرفة المشرفة على أشجار الكمثرة (العنبرود باللهجه الصنعانية) المنتشرة في حديقة الفندق و بجوارها صف طويل من النوافذ المرتفعة عن الأرض و فضلات الطيور المعقدة تلطخ شرفتها الحجرية ، أما لفت انتباهي فهو عمامة السلطان فضل المدورة المربوطة بطريقة ملكية خاصة بها حيث تشكل نهايته قمة العمامة بينما يتدلى طرفه السفلي الطويل أسفل ظهره رغم إرتدائه قميصا رياضيا ذو نمط غربي بحت و معوز تقليدي مثبت بحزام شعبي مزخرف (العسيب) يتوسطه خنجر منحني مزخرف أيضا

(الجنبيـــة) و كلاهمـــا رمـــز الرجولـــة لـــدى رجـــل الريـــف اليمنـــي علـــى مـــر العصـــور ، أعرتـــه قميصـــا واســـعا و ســـروالا قصـــيرا مـــن ثيـــابي و صـــندوق غـــدائي ، إضـــافة إلـــى رؤيتـــي حقيبـــة صـــغيرة و ســـاعة يـــد علـــى ســـاعدة أ خفاهـــا خلفـــه إلـــى جانـــب ســـكين طاولـــة و صـــحون و جـــبن مثلثـــة و وثـــائق ملكيـــة ملفوفـــة كالســـجائر و قلـــم أمريكـــي الصـــنع مـــن نـــوع فـــونتين و مفتـــاح سداســـي الشـــكل مـــن علـــى الحـــزام المعلـــق علـــى المشـــجب و ظـــل المرطبـــان الفضـــي الظـــاهر أمامنـــا ، مـــع مـــرور الوقـــت ، رأيـــت الرجـــل يكحـــل عينيـــه بمكحلـــة حيـــث أشـــار أمـــامي و علـــى ســـبيل الإختبـــار إلـــى خنجـــره المزخـــرف بعمـــلات ذهبيـــة و كـــوب فخـــاري مصـــنوع مقبضـــه مـــن العـــاج و خصـــره البـــراق الصـــلب يتمايـــل معـــه كثقـــب إبـــرة رغـــم أن خنجـــره مثـــل بقيـــة خنـــاجر الحاضـــرين فـــي الشـــكل و اللـــون و فـــي حوافـــه الغيـــرة حـــادة و الغيـــر قـــادرة علـــى تقطيـــع قالـــب زبـــدة حتـــى ، ظننـــت أن هـــذه الخنـــاجر للإســـتعراض فقـــط قبـــل أن يخبرنـــي الســـلطان فضـــل بأنهـــا تســـتخدم للقتـــل ، شـــعر الآخـــرون بـــأني متضـــايق للغايـــة مـــن رده الحـــاد فحـــاولوا إضـــحاكي قبـــل أن يطفئـــوا أضـــواء الغرفـــة عنـــدما لملمـــت أوراقـــي قبـــل صـــلاة العصـــر ، و وقفـــت حينهـــا شـــاعرا بشـــئ مـــا يضـــيئ المكـــان و يتعلـــق بجســـدي دون تخـــدير ليخيـــل إلـــي أن الغرفـــة صـــارت دافئـــة و متناهيـــة الصـــغر وســـط

حشد من الألوان المنوعة غصت فيها دون أن أدري ، وقتها إندهشت ! أكل هذا التأثير السحري من القات أم من أشعة الشمس المنعكسة على زجاج النوافذ المزخرفة بألوان قوس قزح وسط دخان كثيف منبثق من أفواه المدخنين ؟!

بعد عدة أيام أعددت العدة لموعد مهم مع رئيس الجمهورية عبدالله السلال في تمام السابعة صباحا (أي ما قبل وجبة الغداء بساعات طوال) في الخامس من ذي القعدة عام ١٣٨٢هـ الموافق ١٩٦٢م هكذا حسبتها على هذا الأساس رغم علمي بمدى صعوبة تحديد الوقت في حيث يحسب أبناؤها بداية الغروب من الساعة السادسة مساء حتى منتصف الليل بتقديمه أو تأخيره دقائق معدودات وفقا للتقويم القمري الهجري المعمول به (لم يعد معمولا به في البلاد بعد قيام ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢م إلا في تحديد المناسبات و الأعياد الإسلامية) و الذي أنشئ بعد وفاة رسولنا الكريم (ص) في مكة المكرمة (يقصد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة و ليس وفاته) عام ٦٢٢م ، نحن الآن في القرن الرابع عشر الهجري الموافق القرن العشرين و ببعض المعجزات وصلت إليه قبل موعدي الهام ببضع دقائق .

إرتفع هدير الابواق النحاسية عاليا معلنا قدوم رئيس الجمهورية السلال إلى القصر الجمهوري حيث نزل من سيارة دودج خضراء كي يتسلم الشكاوى من أصحابها الراجين منه النظر فيها حسب الدور عندما ينادي المنادي عليهم بورقة لترتيبهم و إن كان هذا لم يمنع قبيلي من إختراق الجمع حاملا بيده ورقة صغيرة رافعا إياها بمخرز ، و خلال خمس دقائق إستمع لهم و قرأ العديد من شكاويهم ثم وقع القليل منها ، بعد ذلك صعد إلى مكتبه الرئاسي ذو النجارة الفاخرة شارحا لي ما جرى في الخارج قبل قليل (مازال الإمام يذكرنا بسلطته المطلقة ، فلو أردت شراء أرض متنازع عليها أو حمولة صابون قادمة من عدن فإن توقيعه الشخصي عليها كان ضروريا لإنجازها ، لذا فنحن نحاول أن نجعل هذه الامور الإدارية تدار بطريقة فيدرالية ، إلا أن معظم الناس هذه الأيام صغيرهم و كبيرهم لم يعودوا ينفذون الأوامر العليا الصادرة من الجهات الرسمية حتى و لو حملت توقيعي أنا شخصيا) .

لا يزال الرئيس السلال مرتديا بزته العسكرية الخاصة بضباط الجيش النظامي ذات اللون الزيتوني الحاد ، رمقني بعينيه السوداوين رمقة ملؤها الحذر بعدما علم بطبيعة عملي الصحفي حيث يعتبر أمثالي من الصحفيين مضللون لعقول

الناس المشغولين بالمشاكل و هذا يزعجه و زملائه الثوار كثيرا (أولا ، علينا القضاء على الإستبداد في بلادنا و بعد ذلك نشر الحرية و التحرر فيه حيث أقصد بكلامي هذا محمية عدن البريطانية المعروفة حاليا بمحمية الجنوب العربي [١٥] ، فهناك يعتبرون أنفسهم يمنيون أقحاح ، لذا فنحن و هم شعب واحد بحكم الجغرافيا و التاريخ و العرق)

(و ماذا عن المدارس و الطرقات و الصحة العامة سيدي الرئيس ؟ أنتم مشغولون للغاية بمتابعة كفاحكم المسلح ضد الملكيين بينما حكومتكم الجديدة لم تصنع الكثير في هذه الإتجاهات السالفة الذكر ، ألا تلاحظ معي ذلك ؟)

(يا عزيزي ، لا يمكننا إجتياز مائة عام بين ليلة و ضحاها ! علينا أولا أن نتعلم كيفية تحقيق الحرية لأبناء شعبنا العظيم و بعد ذلك نتفرغ لبناء بلادنا على كافة الأصعدة ، و لكن هذا لا يمنعنا من الإستعانة بالآخرين سعيا وراء ذلك) .

البلاد تفتح أبوابها على مصراعيها للخبراء الأجانب

ظلت اليمن تحت حكم الأئمة الزيديين مغلقة الأبواب أمام الأجانب لقرون عدة الذين لا يعرفون عن جبالها و ملكها

[١٥] يقصد دولة الجنوب العربية الإتحادية التي تأسست عام ١٩٥٩م ، ثم إن عدن مستعمرة و ليست محمية ، فضلا عن أن مستعمرة عدن البريطانية أصبحت جزءا من دولة الجنوب العربية الإتحادية و عاصمتها الثانية عام ١٩٦٣م (المترجم) .

المقدس سوى النذر اليسير و إذا الحصول على تأشيرة دخول فلابد أن يأخذوها من الإمام نفسه ، أما الآن و خلال المعارك الدائرة بين الإشتراكيين و الملكيين العرب[١٦] أصبحت اليمن منفتحة على جميع البلدان من كلا المعسكرين الشرقي و الغربي ، فلاحظت العمال الأمريكيون يشقون طريقا طويل يخترق الجبال ، ثم تطفلت على المهندسين الروس و هم يضعون اللمسات الأخيرة لميناء جديد في الحديدة (الميناء تم إنشاؤه في عهد الإمام أحمد عام ١٩٥٤م و ليس بعد الثورة) ، و الصينيون الصامتون في عملهم و طبيبات فرنسيات و رجال أعمال إيطاليين و خبراء إقتصاديين مصريين .....الخ .

و في إحدى ضواحي صنعاء زرت محطة التجارب و البحوث الزراعية التي قامت المانيا بإنشائه عن طريق مهندس بافاري[١٧] الأصل فلهلم ستالر حيث رافقته في مزرعة اللوتس التجريبية و تفقدت معه ثمارها اليانعة من البصل و الجزر و التفاح و البرتقال الحلو ، و من خلالها يمكنك رؤية سهل شعوب الأخضر في الشمال المحاط بالحرس الوطني و تلوح منه عن

[١٦] يقصد المؤلف الحرب بين الرئيس المصري جمال عبدالناصر و حلفائه العرب و الأجانب و الدول الملكية العربية المحافظة و حلفائها العرب و الأجانب أيضا فيما بات يعرف عند المؤرخ الأمريكي مالكولم كيير بالحرب العربية الباردة (١٩٦١-١٩٧٠م) (المترجم) .

[١٧] نسبة إلى ولاية بافاريا الالمانية و عاصمتها ميونيخ (المترجم) .

بعد محاصيل الذرة تفوح منها رائحة النسيم في السماء و الأرض .

أخبرني المهندس ستالر أنه في اليمن هناك ٩ من أصل ١٠ أشخاص يعملون في الزراعة ، و هم من المزارعين الأكثر حظا في شبه الجزيرة العربية ، ففي هذا السفح المرتفع يهطل عليه أكثر من حوالي ٣٨١ مليمتر من الأمطار الغزيرة كل سنة (و الأرض القليلة الري أرض قاحلة للغاية ، لكن مع مساعدة أصحابها بتعليمهم الوسائل التقنية التي تؤدي إلى تخصيب البذور و المحاصيل و تحسينها تصبح صالحة للزراعة) .

و ما إن صعد ستالر إلى متن جرارته الزراعية حتى أحاط به جمع غفير من المزارعين المحليين من بينهم مزارع عجوز قادم من الحقل المجاور للمزرعة التجريبية بعدما ربط ثيرانه قرب أشجار الموالح فيها (يوما ما سأمتلك واحدة من هذه الجرارات الزراعية إن شاء الله ، لقد أمضينا طوال حياتنا نعمل بالأجرة ، أما الآن فسنعمل لأنفسنا) .

من المعروف أن الزراعة تغطي ٩% من مساحة البلاد و تتركز في الجبال أو على طول الأودية الضيقة القريبة من مصادر المياه الجوفية حيث الأمطار الشتوية (الأمطار في اليمن ما عدا حضرموت و المهرة موسمية صيفية) تخط طريقها و تحفر

الجبال الوعرة ، مثال على ذلك واد كبير يمتد ١٦ كيلومتر شمال غرب صنعاء ألا و هو وادي ظهر حيث تجاور حدائقه أعلى جبل في شبه الجزيرة العربية جبل النبي شعيب (جبل النبي شعيب يجاور منطقة بني مطر في محافظة صنعاء و ليس قرية القابل أو وادي ظهر في أمانة العاصمة) الذي يرتفع حوالي ٣٧٦٠ متر عن مستوى سطح البحر حيث تحرس لمدة طويلة من قبل أبراج المراقبة المقامة حولها ، أما واديه المتعرج فيمتد من أسفل الطريق الترابي الوعر حتى إختراقه للتلال الحجرية الرملية المقابلة له .

عبرت بسيارتي اللاندروفر المنحدرات الصخرية على طول الوادي المذكور سلفا حيث قادنا إلى قرية فيها أغرب بناء رأيته في حياتي فعلا حيث تتكون أدواره العليا مؤلفة من خمسة طوابق تضأ من فوق للمراقبة ، و هو أحد القصور الصيفية للإمام يحيى قبل أن تحوله حكومة الثورة إلى مكتب مدير مديرية المنطقة .

(أهلا و سهلا بكم) هكذا رحب بي سكرتير مدير المديرية محمد علي الدار أمام القصر و نحن نصعد سلالمه الحجرية (عندما حل الحميريون محل السبئيون بنوا لأول مرة حصنا عسكريا في هذا المكان ، و في القرن السادس عشر أعاد

الأتراك بناءه قبل أن يضيف الإمام يحيى جد الإمام البدر هذا المبنى الجديد منذ ثلاثين عاما) .

تأملت هذا البناء الحجري العجيب بأسواره الحامية له من كافة النواحي عدا مشكلة الماء التي لم يعثروا على حل لها قبل أن يخبرني محمد الدار بأن الحميريين فكروا بها و حلوها بحل مبتكر لا مثيل له حيث قادني إلى فتحة صغيرة في القصر و قذف خلالها حجرة صغيرة أيضا ، و بعد ثوان معدودات تفجرت المياه منه و تناثرت قطراته علينا ، و بعيدا عنا في الأسفل تدفقت بسلاسة من الصخور الصلبة إلى السطح الذي لا يزال الصعود إليه عبر التسلق ، كنت أراقب من أعلى الوادي بأكمله ببساتينه المسيجة بالطين و الممتلئة بأشجار العنب و الرمان و الليمون و الكمثرة و المشمش و البرتقال تتوسط صفوف أشجار البرقوق ، أخبرني مرافقي محمد علي الدار بأنهم هنا يشكرون الله على نعمه و فضله المتمثلة ببشائر ربيعهم الصغير الذي يغطي خيره المنطقة بأرضها و سمائها ، فطرحت على نفسي هذا التساؤل ، كيف لمجرى صغير حول هذا الوادي إلى واد كبير ؟ سوف أرى ذلك بنفسي في اليوم التالي .

مـــا إن إســـتيقظت مبكـــرا قبيـــل شـــروق الشـــمس حتـــى رأيـــت مجموعـــة مـــن المســـاجين المكبلـــين بـــالقيود و الأغـــلال يتجهـــون نحـــو المســـجد لأداة صـــلاة الفجـــر ، مـــن المعـــروف أن المجـــرمين الخطـــرين يزجـــون فـــي ســـجون جماعيـــة أمـــا الجـــانحين الصـــغار و معظمهـــم مـــن الأطفـــال فيربطـــون بقيـــود و سلاســـل ثقيلـــة حـــول ســـيقانهم و يتركـــونهم يتجولـــون بهـــا فـــي الشـــوارع حيـــث كنـــت أراهـــم فـــي كـــل مدينـــة أزورهـــا يعملـــون فـــي الأســـواق العامـــة بهـــا إمـــا لبيـــع الخضـــروات و إمـــا لنقـــل المـــاء العـــذب ، لا يـــزال العقـــاب الجســـدي الوحشـــي مطبقـــا فـــي الـــيمن ، فالســـارق يعاقـــب بقطـــع يـــده اليمنـــى ، أمـــا الخـــائن أو القاتـــل عمـــدا فيعاقـــب بقطـــع رأســـه بالســـيف أمـــام حشـــد مـــن النـــاس ، أثنـــاء خروجنـــا مـــن بـــاب الســـجن و بعـــد تنـــاول الإفطـــار ســـألت محمـــد الـــدار عمـــا إذا نـــوت الحكومـــة إلغـــاء نظـــام العقوبـــات القاســـي هـــذا أم لا (إنهـــا الشـــريعة الإســـلامية يـــا عزيـــزي ، و لكـــن علينـــا أن نقـــوم بتقنينهـــا و تطويعهـــا بما يتناسب مع متطلبات العصر الحديث)

(ســـمعت أن ســـارقا قطعـــت يـــده فـــي ذمـــار يـــوم الجمعـــة الماضـــية ، ماذا عنه ؟)

(أوه نعم تذكرته ، ألم تعلم بأنهم أعطوه النفقة ؟) .

عرفني محمد على محسن عطية ، و هو رجل مهم في منطقته التي تبدو جزءا منه ، طويل القامة و عريض المنكبين رغم يديه الناعمتين الخاليتين من آثار الحرث و الخشونة السائدة عند الفلاحين المحليين و لحيته المصبوغة بالحناء الأحمر البراق المحيطة بذقنه العجوز ، هذا الرجل يعمل مقسما لمياه الري في بساتين وادي ظهر كافة حيث شرح لي طبيعة عمله القائمة على توزيع المياه الغزيرة لديهم بشكل عادل على الفلاحين و لا سيما أنها غير منظمة بينهم بشكل سليم (عملي يقوم على رؤية الآبار ما إذا كانت جافة أم تقسيمها تم بشكل صحيح) .

مشيت أنا و محسن مسافة كيلومترين حتى وصلنا أسفل الجدول ، و أخيرا وقفنا عند إحدى البوابات الخشبية الكائنة في عرض سور ترابي طويل ممتد على طول مجرى النهر ، و على بعد يارادات قليلة فوق بوابة السد القذرة كان الجدول يجري بسلاسة تحته نحو أراضي الفلاحين ، و ما إن دخلنا حديقته حتى قدمني محسن إلى معلمه الذي قدم لي إبتكاره الغريب ، ساعة مائية يحدد من خلالها حصة كل مزارع من المياه ضمن فترة زمنية معينة على هيئة وعاء مقعر بحجم كوب من القهوة يطفوا على قدر مملوء بالماء ، و بينما كنت أراقب أصغر وعاء على قدر من الصفيح مملوء بالماء فإذا به يغوص

أسفله و يصرخ محسن (قلص) أي كأس باللهجة الصنعانية ، بمعنى آخر إنتهينا من تحديد مكان الحفر ، و على إثر ذلك يقوم رجلان بحفر الموضع المحدد بمعاولهم و رفشهم فيشقوا عبرها مجرى جديد يتصل بالجدول و يتدفق الماء في الحال صوب الجهة الأخرى و يلتف نحو البستان التالي (نحن نترك الوعاء يغوص مرة واحدة لكل ١٠٠ متر مربع لينالها فلاح واحد ، و بعد غد سنبحث أسفل نهاية الوادي ، ثم نبدأ بالحفر من أعلاه مجددا) .

لقد الوقت ظهرا عندما وصلنا إلى بيت محسن و الشمس شديدة الوطأة علينا بأشعتها الحارقة قبل أن يخفف النسيم الهادئ القادم من أحد بساتينه علينا حرارتها الطاغية أثناء تناولنا الغداء تحت ظلال أشجار الفواكه الوارفة بجانب الغدير و شربي عصيرا من الليمون الطازج حيث عبرت عن إعجابي به بكلمة (تمام) ليرد علي محسن مبتسما (تمام و نص) فإبتسمت عند سماعي لها و هي تعني باللهجة الصنعانية (تمام و نصف) ، بالنسبة للكتاب الكلاسيكيين كانت اليمن تعرف لديهم بالعربية السعيدة ، نادرا ما كنت أفكر بهذا الإسم ، و لكن في بستان محسن عندما هزت الرياح أغصانها اليانعة و

البلابل على متنها تصدح بأصواتها الشجية حتى إكتملت الصورة لدي .

عندما قدت السيارة جنوبا قادما من صنعاء أبقيت عيناي مفتوحتين بحذر على الطريق و أنا أتذكر مشكلة حدثت فيه قبل أسبوعين بعدما إختطف رجال قبائل ملكيين لمراسل صحيفة ايريش تايمز قبل أن يسلموه إلى أحد الضباط المصريين عبر الصليب الأحمر بعد يومين من خطفه بالقرب من مدينة معبر (ذمار) حيث تجادلوا بشأنه عما إذا كان يتوجب قتله أم لا ، و أخيرا قرروا إخلاء سبيله تاركا وراءه جواز سفره و نقوده و كاميرته و حقيبته و حتى سيارته الجيب لهم .

معظم الطرق في اليمن هذه الأيام مناسبة لوسائل المواصلات البدائية كالخيول و الحمير و أحيانا الجمال و صعبة بالنسبة للسيارات جراء طبيعتها الغير معبدة ، نزلت من قمة جبل سمارة الكائن جنوب محافظة إب ، و عند الطريق جلمود صخري عملاق قبل أن يختفي أمامنا ظاهريا في الجو ، توقفت لوقت قصير ثم إستأنفت المسير و بعد ذلك زادت دهشتي عندما لم أجد أية إنجرافات أو إنزلاقات صخرية أمامي حيث أوصلتنا الطريق ببساطة إلى الجانب الآخر من

الجلمود المذكور سلفا ، قدت السيارة بإنتباه شديد متقدما تقدما منخفضا أسفل الصخور الصغيرة قبل أن أترجل من سيارتي قاطعا المسافة المتبقية بحدود مائة قدم سيرا على الأقدام .

تقبيل الخدين من تقاليد التحية لدى اليمنيين

وجدت نفسي فيما بعد محاصرا بالحجارة المتجمعة من كل ناحية ، فتوقفت عند بئر صغير مهترئ على جانب الطريق الأيسر ، ثم مشيت مسافة قصيرة بغية تسلق قمة إحدى المرتفعات المنتهية بأسوار مدينة إب القديمة ، و في تلك الأثناء مر من أمامي مجموعة من الحمالين الكادحين يحملون على أكتافهم نبوتا طويلا عليه أكواما من الأباريق البالية و يجرون وراءهم جمالا على متنها حزما من البصل و الجزر على طريق معبد بالأحجار ، كما مر من أمامي أيضا رجلا يركب حماره حاملا مظلته البيضاء فوق رأسه و يعرف لدى العامة بالسيد أي أنه من النبلاء الذين يتصل نسبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ماضيا في دربه بفخر و إعتزاز يتبعه خادما له سيرا على الأقدام .

كانت الأحجار المسطحة المصقولة للغاية لهذا الطريق تشكل السلالم المؤدية إلى مدينة إب، فبينما أصعد عبرها إلى بوابتها

الرئيسية الواقعة بين برجي حراسة مدورين (النوبة) حيث رأيت أمامها جنديين من جنود المشاة في الجيش الإمامي سابقا بقفطانهم الفضفاضة المربوطة إلى الوراء يتبخترن في مشيتهم المضحكة حيث صافحانا بالأيدي كغيرهم من اليمنيين ، أما في حالة أصحاب المكانات الرفيعة ذوي اللباس الأبيض فيقومون أيديهم و أكتافهم ثم خدودهم و بعد ذلك يسلمون عليهم سلاما رمزيا من بعيد ، أما رجال الدين أو أصحاب المراكز العليا في الدولة فيقبلون أيديهم خاصة .

عادة ما كان الأطفال يرتدون خناجر من الخشب موازية لخناجر آبائهم ، و عندما رأوني إستغربوا من شكلي الغريب و عيناي الزرقاوان ، فصرخوا في وجهي و نادوني بالنصراني أي المسيحي باللهجة الصنعانية و إستسلمت لحشدهم الغفير قبل أن ينفضوا من حولي و يفروا مع ألعابهم من وجه ضابط كبير صرخ عليهم و أخافهم بطلقات من بندقيته حسبما أعتقد .

بعد ليل مظلم ، بدت مدينة العشرة آلاف نسمة إب بلياليها القمراء و بيوتها البيضاء المائلة إلى الزرقة و المرتفعة فوق أسوارها المحصنة و مبانيها الأخرى الواقعة أسفل التل بنوافذها المحدبة المزخرفة بألوان قوس قزح في نقوش فائقة

الجمال كما لو كانت قصة من قصص ألف ليلة و ليلة ، و لكن ليس كل ما في هذه المدينة الخضراء جميل للغاية مع جوها البارد و رطوبتها الشديدة تحمل بين طياتها صوت ناي راعي الغنم الوحيد فيها .

في ذلك المساء إلتقيت بأكبر شيخ قبيلة في المنطقة المدعو أمير متاع درج ، و على الرغم من أن كبره في السن قد أضعف أسنانه و لحيته إلا أنه لم يضعف إرادته و ولعه الشديد بالشاي و الحلوى الذين تناولهما معي أثناء حديثنا عن ماضي اليمن و مستقبله (المياه العذبة المحولة تنتشر في اليمن هذه الأيام و نحن نتعطش لها كثيرا و قنواتها الأساسية هو ما كنا نحتاجه في البداية ، في العصور القديمة كان لدى اليمن طرقا جيدة للغاية على مر العصور ، الطريق القديم الذي تراه خارج المدينة هو من بقايا طريق عبده الحميريون منذ ألفي سنة ، و بعد هذا التاريخ بقرون قامت ملكتنا سيدة بن أحمد الصليحي المعروفة لدينا بالملكة أروى[١٨] برصفه من جديد) .

[١٨] الملكة أروى بنت أحمد الصليحي (١٠٩١-١١٣٨م) أحد ملوك الدولة الصليحية في اليمن خلال العصور الوسطى و أقواهم حيث أمتاز عهدها بالأمن و الإستقرار و الرخاء و الإزدهار الإقتصادي و بمشاريعها العمرانية في عرض البلاد و طولها قل نظيره ، كما أنها من أسست مدينة جبلة في محافظة إب لتكون عاصمة للدولة عام ١٠٩٣م بدلا من صنعاء ، و قد عرفت لدى العامة بإسم أروى و التي تعني أنثى الوعل الجبلي باللغة اليمنية القديمة (المترجم) .

الآن لدى إب طريقا جديدة تقوم الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) بشقها من المخا[19] مرورا بتعز حتى صنعاء ، و على هذا الطريق الذي يبعد ٦٤٤ كيلومتر جنوب إب سمعت صوت إنفجار الديناميت من على التلال الخلفية للمدينة و إهتزاز الدكاكات و الجرافات التي تقطع الصخور حول الجبل حيث لاحظت أن معظم سائقيها هم من اليمنيين كمحمد عراسي الذي كنت أتحدث معه أثناء تصليح المهندسين اليمنيين لجرافته (منذ نصف قرن ، كان أبي يحرث الصخور في نفس الوادي بصعوبة بالغة ، أما الآن فصرت أهز الأرض هزا و بمنتهى السهولة يوازي ما كان يقوم به أبي من حرث المتواصل للوادي طوال حياته) .

القات يحل محل البن

كانت تعز في عهد الإمام أحمد عاصمة منذ عام ١٩٤٨م حتى قيام الثورة عام ١٩٦٢م ، و هناك قابلت بلا فخر مدير الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في اليمن و هو من ولاية ويسكونسينت و يدعى جيمس ميغيلاس (قبل أن نبدأ برنامجنا التدريبي للعمال المحليين لم يكن معظمهم يحلم أبدا إلا بشد الحبال فقط ، أما الآن فلدينا أكثر من ١٦٠٠ عامل يمني

[19] مدينة تقع شرق محافظة تعز و هي ميناء المحافظة الرئيسي المطل على البحر الأحمر (المترجم) .

يعملون لدينا قادرين على تشغيل الشاحنات و الجرافات و الضاغطات و الرافعات و الدكاكات و المطارق الهوائية) ، يشرف منزل جيمس على المئذنتين التوأم لمسجد الأشرفية و أسوار تعز التي صدت الأعداء لقرون طوال دون أن يتمكنوا من تكوين صداقات بين سكانها المسالمين قط ، فضلا عن الضواحي الحديثة في التلال المجاورة ، ثم إستأنف حديثه معي (الصين الشيوعية بنت طريق من الحديدة على البحر الأحمر إلى صنعاء ، و لكن تقنياتهم كانت مختلفة تماما عنا حيث أحضروا ألفي عامل من بلادهم معهم و عاشوا في الخيام المنصوبة على طول الطريق قبل أن يغادروها بعد إنجازهم لها ، أما نحن فنعمل و معنا الشعب اليمني عن بكرة أبيه رغم إحضارنا بعضا من عمالنا الأمريكيين على سبيل الإعارة فحسب ، فنحن لا نبني الطرق فقط بل ندرب اليمنيين كيفية بناء وفق المواصفات و المقاييس الحديثة[٢٠]) .

مازالت معظم البعثات و السفارات الأجنبية تتخذ تعز مقرا لها بدلا من العاصمة حيث شعرت أثناء تجوالي لشوارعها و بيوتها المختلفة بأنني في القرن العشرين و لا سيما على طول الشارع العام ، ففي الراهدة يوجد طريق الحائل المرصوف و المعبد

[٢٠] الصينيون كانوا في بناء الطرق يستعينون بالعمال اليمنيين و لكن في أضيق الحدود و ليس كما أدعى مدير فرع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في اليمن جيمس ميغلاس ذلك (المترجم) .

بالإسفلت يحيط بأسوارها المنيعة ، سيارات جيب و تاكسي و سيارات دبلوماسية برفقة جمال كثيرة وصلوا للتوهم إلى هناك حيت تتكدس فيها الدكاكين و المحلات الجديدة التي تعج بالعاملين و البضائع المختلفة و المتواجدة لأول مرة في تاريخ اليمن الحديث مما يمكننا من الإستمتاع بها من أجهزة الراديو اليابانية و الألعاب الأمريكية و العطور الفرنسية و الساعات السويسرية ، بل إنني إلتقيت بنفسي شابا يرتدي لباسا غربيا متأبطا كيس قات ليمضغه في العصر حتى يغير طعم البن في فمه (يفسخ) .

تجولت في سوق تعز الذي لايزال مزينا بتعاويذه الدينية القديمة بصحبة صديق يمني نشأ في عدن يدعى محمد عبدالله مرداس و هو يرتشف كوبا من قشور البن (قشر) في الصباح و هي قهوة حلوة مشهورة في اليمن و تصنع من القشور بدلا من الحبوب[٢١] ، و في الطاولة المجاورة لطاولتنا لفت إنتباهي حدوث معركة حامية الوطيس داخل السوق عندما تعارك رجلان حول قطع من لعبة الدومينو الرخامية و نساء يطفن خارج الشارع حاملات فوق رؤوسهن سلال الخبز المصنوعة من الذرة مرتديات ثوبا نسائيا دون حجاب مزينات

[٢١] يقصد المؤلف حبوب البن بعد طحنها (المترجم) .

بشكل متفرق بنقوش خضراء صفراء صارخة الألوان ، بالنسبة لي و محمد فقد ذهلنا بأفخاخ الحضارة الحديثة هنا أيما ذهول .

فقدت معظم أرواقي الصحفية هذا الصباح ، لقد كانت الصحافة في عهد الإمام متخلفة للغاية[٢٢] حيث أخبرني محمد و قد إرتسمت على شفتيه إبتسامة خبيثة (هنا تأتيك صحيفتنا الصباحية في الحال) ، و صوب مقهى مزدحم للغاية داخل السوق و يديره شاب يرتدي أسمالا بالية حاملا بيده اليمنى قطعة قماش مطرزة بألوان صاخبة للغاية إذ به ينشد أمامنا أغنية حماسية (جيوش الملك سعود هجموا علينا

و إحنا دفناهم في الحدود

قتلت مدافع السلال الميات منهم

و في ساعة واحدة إختفوا خارج الحدود) .

كنت أتابع سماع الأخبار المهمة للوضع المحلي الراهن من تعليقات العامة المتناقل عليها ، فلقد أضفى ظهور العمود الصحفي أو الزاوية الصحفية في الصحافة المحلية نوعا من

[٢٢] المؤلف يبالغ كثيرا في وصفه للصحافة في العهد الإمامي بالمتخلفة ، فلقد كانت متخلفة للغاية في عهد الإمام يحيى (١٩١٨-١٩٤٨م) قبل أن تتطور في عهد خلفه أحمد (١٩٤٨-١٩٦٢م) إثر نقل العاصمة إلى تعز عام ١٩٤٨م و تأسيس وزارة الإرشاد القومي عام ١٩٥٤م و تأسيس الصحفي اليمداوي عبدالله باذيب صحيفة الطليعة ذات الميول الإشتراكية الماركسية في تعز عام ١٩٥٦م (المترجم) .

حريـــة النقـــد ضـــد أعلـــى مســـئول فـــي الدولـــة ، فوجـــدت نفســـي أشـــاركهم التصـــفيق فرحـــا أيضـــا إثـــر ســـماعي مطلـــع أغنيـــة أخـــرى صادرة منه (قلب حبيبي طار من الفرح

كما لو كان غصن طري

صوت خطواته الهادية

و عيونه الزيتونية

شفايفه العسلية

و أصابع يديه

يا تخليني مغروس في قلبك

يا تخليني أعيش حر طليق) .

عندئـــذ ، كانـــت خرقتـــه المطـــرزة تهتـــز بالبقشـــيش و التلفزيونـــات و آلات تســـجيل الشـــرائط تختفـــي فـــي الـــيمن و لا ســـيما عنـــد العامة من سكانها لشدة إقبال الناس عليها هناك .

مثـــل معظـــم اليمنيـــين ، كـــان محمـــد يشـــرب الشـــاي و هـــو ســـاخن ، ظننـــت حينهـــا بـــأن الشـــاي هـــو المشـــروب الـــوطني فـــي أنحـــاء البلـــد الـــذي يعتبـــر المـــوطن الأصـــلي للـــبن ، ففـــي عـــام ٨٥٠ ق.م قـــاد

راعي غنم أوساني[٢٣] يدعى كالدي قطيعه عبر الجبال الشاهقة حيث يشغل فراغه بالرقص و الهش لغنمه بعد أن يأكلوا بتأن الحبوب الحمراء من شجيرة خضراء ، فعبأ كيسه بهذه الحبوب و قام بتسخين كأس لنفسه ليكتشف على إثر ذلك جودته و طعمه مما أدى إكتشافه الفريد من نوعه هذا إلى إنتشار البن في أنحاء جنوب الجزيرة العربية ، و تم زرع ١٦٠٠ شجرة بن في اليمن و قامت بتصديره مطحونا إلى الخارج ، و ظلت اليمن محتكرة إنتاجه حتى عام ١٧٠٠م حينما تم زرع شجيرات البن الصغيرة في جاوا بإندونيسيا و العالم الجديد ، إحدى موانئ اليمن المطلة على البحر الأحمر إلا و هي المخا إرتبط إسمها بالبن و أصبحت مرادفا لجودته .

تستغرق رحلة القوافل المحملة بالبن من الجبال العالية قاطعة سهل تهامه حتى المخا يومين (أما الآن فمع الطريق الأمريكي الجديد المعبد لتوه تستغرق الرحلة السالفة الذكر في نفس الصحراء أقل من ساعة) حيث كانت أشبه برحلة من الثريا إلى الثرى ، و على بعد ١٦ كيلومتر بدت لي من بعيد منارات جامع المخا كما لو كانا مجرد سراب هائم فوق خط شبه

[٢٣] نسبة إلى مملكة أوسان (٢٠٠٠-٦٧٠ ق.م) (المترجم) .

ضـــبابي ضـــيق للغايـــة دون أن أرى ســـوى القليـــل مـــن آخـــره ، فقـــد قـــدت الســـيارة أســـفل الشـــارع الرئيســـي الـــذي يمـــر بالمدينـــة الضـــائعة دون أن أتمكـــن مـــن رؤيـــة أي شـــئ بـــالمرة ، تتطـــاير الرمـــال مـــن حـــولي و تغطـــي جانبـــا مـــن ســـيارتي التـــي قـــدتها حتـــى ظهـــرت قرقعـــات صـــغيرة عليهـــا ممـــا أجبرنـــي علـــى إيقافهـــا عنـــد بقايـــا مسجد قديم ، فترجلت و أنا غاضب للغاية .

أحلام المخا من الماضي البعيد

فـــي جوهـــا الحـــار الـــذي لا يطـــاق كـــان الرمـــل المتطـــاير ينقـــر جســـدي كـــالخردق و صـــدري يختنـــق و عينـــاي تحمـــر و رأيـــت بـــالقرب منـــي المـــؤذن فـــوق منـــارة مهدمـــة يـــدعو إلـــى الصـــلاة قبـــل أن يضـــيع صـــوته المبحـــوح وســـط العاصـــفة الهوجـــاء ، مـــررت مـــن خـــلال إحـــدى الطـــرق الترابيـــة و إقتربـــت مـــن البحـــر و بجانبـــه مـــاض موغـــل فـــي القـــدم مـــدفون تحـــت أكـــواخ مهترئـــة و أطـــلال باقيـــة و نســـاء يتشـــبثن بثيـــابهن الرثـــة كـــي يغطـــين بهـــن أجســـادهن الضـــعيفة يصـــارعن الـــريح بكـــل مـــا أوتـــين مـــن قـــوة حتـــى لا يلحظننـــي و رجـــل يرتـــدي لثامـــا حـــول وجهـــه و هـــو يجـــرف الأتربـــة مـــن بابـــه بعيدا عبر رفش خشبي كبير يجره ثوران معصوبا العينين .

علـــى إمتـــداد الشـــاطئ كانـــت الريـــاح قويـــة للغايـــة رغـــم قـــدومها مـــن البحـــر خاليـــة مـــن الرمـــال المتطـــايرة ، و يـــرابط حـــول جانـــب صـــغير

من المرفأ البدائي الكائن فيه معظم ما تبقى من الحياة اليومية للمخا ، بيوت بيضاء ، مسجدين و برج ساعة تركي قديم ، خلت الطريق الممتدة صوب أعظم ميناء في اليمن من البشر و الحجر ما عدا الرمال المتراكم عليه و أثار البصاق المشوه لتاريخه العريق ، سرعان ما عادت القوارب البدائية (السنبوك) محملة بالصابون البراق و الكبريت و صفائح الجاز من سفينة شحن روسية رست لتوها على القناة .

عند الإنتهاء من صنع هيكل القارب و دهن يترك ممددا على الشاطئ تحت أشعة الشمس حتى يجف ، و بالقرب منه وجدت صيادا كهلا يدعى أحمد عبده يرمم شباكه حيث أمضى طيلة تسعين من عمره في المخا و يتذكر أيامه السعيدة فيها (في فصول الصيف الإثني عشر من حياتي كنت أقود قاربي هذا و نشحن البن من خلاله إلى عدن و أحيانا إلى عصب في إثيوبيا[٢٤]) .

ما إن صعدنا إلى أحد المقاهي القريبة منا حيث لم يكن أكثر من مجرد سقف مغطى من حشائش و أغصان صحراوية و أعمدة من أعمدة العاج حتى دبت ملامح غروب الشمس على جدرانه المتواضعة التي يتسكع عليها نصف دزينة صيادين

[٢٤] حاليا هي في إرتيريا بعد إستقلالها عن إثيوبيا عام ١٩٩٣م (المترجم) .

يدخنون بغلايين فخارية الصنع يفرجون من خلال دخانها المتصاعد عن أساريرهم المكبوته فيه (عندما كنت صغيرا ، كانت يكتظ بالقوارب أو السنابك منتظرا قدوم القوافل القادمة من أماكن بعيدة كصنعاء محملة بالبن و الحكايات الغريبة من المدن الواقعة في الجبال العالية و الأسواق و مخازن الحبوب التي يأتي منها أجود حبوب الذرة ، في تلك الأيام كانت مدينتا رائعة للغاية ..... لديها أكثر من ٦٠٠ بيت و ٢٠ منارة و كانت أرضا خضراء عامرة بأشجار النخيل و الذرة و مزارع البطيخ (الحبحب)) .

إزدياد درجة المقياس الحراري عند الحر

وقف صاحب المقهى فوق رؤوسنا و بيده إبريق الشاي البخاري دون يمنع أحمد من إستئناف حديثه الشيق (و بعد ذلك و منذ حوالي ثلاثين عاما مضت حرمتنا السماء من مطرها الغزير لمدة ثلاث فصول كاملة ، فماتت الأشجار و بارت الحقول و أضحت أبارنا مالحة لا تطاق قبل مجيئ فيضان عارم غمر نصف المدينة حتى وصل الميناء) .

صمت للحظة متذكرا ما حدث ، و بعد ذلك شكر الرجل على إحضاره الشاي لنا ، فإقترحت عليه تناول كوبا من بن المخا الشهير ما أثار إستغراب صديقي أحمد و صاحب

المقهى و نظرا إلي بإرتباك حاد (بن ؟! لا أحد هنا يشرب البن في المخا) ، في تلك اللحظة قررت أن أجد بن المخا مما كان الثمن ، فقدت سيارتي شمالا حوالي ٢٤١ كيلومتر عابرا الصحراء المجاورة للبحر الأحمر[٢٥] حتى الحديدة ميناء اليمن الرئيسي ، ثم إنحدرت سيارتي اللاندروفر أسفل الحصى المدحرجة على هذه الطريق بالقرب من قرية السبح حيث غرقت عجلاتها في الرمال قبل أن يحل قروي عجوز يدعى منصر مهدي و ثلاثة أولاد مشكلتي بسهولة عندما وضعوا أحزمة من الحشائش الصحراوية و وضعوها تحتها ثم أعطوني ماء باردا للمحرك ، و بعد ذلك جررنا السيارة إلى أرض صلبة مجددا .

لقد كان الوقت آنذاك ظهرا ، و ما إن أخرجت مقياسي الحراري من مرأة القياس الخلفي حتى صعد مؤشره فوق ٦٥ درجة مئوية مما يدل على إرتفاع الحرارة إرتفاعا شديدا ، فنصحني القروي العجوز بالبقاء عندهم حتى تخف حرارة الشمس و عرض علي الذهاب إلى قريته ،كان لباسه نموذجيا في هذه المنطقة حيث إرتدى ثوبا قطنيا فاتحا و قبعة مصنوعة من سعف النخيل ، و من بشرته الداكنة بدا أسمر وسيم

[٢٥] عاد المؤلف إلى معلوماته المغلوطة مجددا و لا سيما و أنه جغرافي بإمتياز، فالذي يجاور البحر الأحمر هي سهول تهامة و المرتفعات الغربية و ليست الصحراء (المترجم) .

الطلعة و كان على ما يبدو من ملامحه السمراء صوماليا حتى النخاع ،كان الجو باردا للغاية تحت سقف بيته المسيج بأعواد القش و الطابق القذر الذي نحن فيه مغطى بالحصير النظيف ، شكرني على إهدائه فرش نوم لي مآثرا نفسه علي و علقه على بكرة بئر خشبية مستعملة .

من باب المطبخ الخارجي القريب من أعمدة المنزل أحضر ولد أسمر يرتدي عصابة رأس قضية اللون أرغفة خبز قاسية مبخرة بالبخار و خبز و جبنة مصنوعة من لبن الناقة ، فإقترح منصر علي بأنه سيرسل الشاب عبدول إلى بيت الفقية لشراء بعض القات ، فرفضت إقتراحه مصرا على رفضي ذلك بإعتبارها منطقة بعيدة و غالية للغاية أكثر مما يجب و فضلت عوضا عنها زيارة قريته بآلات التصوير ، و في وقت متأخر من العصر وصلنا إلى وسط السبح الإجتماعي المزدحم حيث شاهدت بئر القرية بحباله الطويلة تسحبه نساء قطعن رمال الصحراء نحوها كي تسقي قطعانها حيث يقاس عمق هذا البئر بأكثر من ١٥٠ قدم ، تصطف النساء في طوابير و تنتظر كل واحدة دورها فيها حاملات أوعيتهن و مجوهراتهن الثمينة ، بينما رأيت ولدا يحفر حفرة في الأرض ليملأه بالماء حتى

تشـــرب جمالـــه و غنمـــه منـــه و شـــخص آخـــر يســـتمتع بعـــزف النـــاي و بعض أطفال القرية يرقصون على إيقاعاته الجميلة للغاية .

منصر يستقبل صفعة النجوم بصدر رحب

قبـــل مغـــادرتي القريـــة شـــكرت منصـــر علـــى إستضـــافته لـــي و ســـألته كيـــف أرد لـــه الجميـــل ، فطلـــب منـــي إحضـــار أحـــد الأطبـــاء الأمـــريكيين إلـــى قريتـــه لمعـــالجتهم فوعدتـــه بالمســـاعدة ، بـــدا واضـــحا مـــن طلبـــه الغريـــب هـــذا أنـــه لا علاقـــة لـــه بالطـــب أو بـــالعلاج بـــل لأن معظـــم الـــزوار القـــادمين مـــن العـــالم الغربـــي كـــانوا أطبـــاء ممـــا أدى إلـــى إعتقـــاد ســـائد لـــدى النـــاس هنـــا بـــأن مـــن يـــأتي مـــن الغـــرب فهـــو طبيـــب ، لـــذا أتـــوا إلـــي للمعاينـــة بإعتبـــاري طبيبـــا حسب زعمهم .

مضـــى شـــهر علـــى رحيلـــي مـــن قريـــة الســـبح قبـــل أن أعـــود إليهـــا مجـــددا مندهشـــا مـــا إذا نســـي منصـــر وعـــدي الســـالف الـــذكر لـــه ، وصـــلت إليهـــا مســـاء و لكـــن بعـــد أن حـــل عليهـــا الظـــلام الـــدامس ، كـــان منصـــر يتـــوق إلـــى عـــودتي إشـــتياق طفـــل لكعكـــة عيـــد مـــيلاده ، فـــي جـــوف الظلمـــة تحســـس الزجـــاج الـــذي إشـــتريته مـــن ســـوق فـــي الحديـــدة دون أن يـــتمكن مـــن لمســـه محـــاولا إنتظـــار قـــدومي إليـــه حيـــث صـــرخ متطلعـــا نحـــو كبـــد الســـماء المقمـــرة (النجـــوم ، النجـــوم ، أنت منحتني النجوم مجددا !) .

في الحديدة ، إلتقيت بصديق قديم لي و يدعى مايكل حارس و هو خبير نفطي أمريكي من أصل لبناني يعمل في هيوستن بولاية تكساس في قسم اليمن ، إلتقيته به للمرة الأولى عند الأعمدة الرومانية في بعلبك[٢٦](نحن الآن نبعد آلاف الأميال عن مناطق آبار النفط في الخليج العربي ، و مع ذلك لدينا فرصة عظيمة هنا حيث أجرينا حفر خمسة آبار إختبارية فيها ، أي نعم لم نجد بهن نفط و لكن تبقى بوارق الأمل موجودة هناك) .

سرنا معا عبر الأسواق المسقوفة قاطعين موقفا للقوافل المسافرة صوب شارع تغطيه الملابس المصبوغة بالأحمر البراق الذي لم يجف بعد ، فالمقارم (حجاب النساء في صنعاء القديمة) كانت ترسل للأسواق الجبلية عكس النساء السمراوات على طول الساحل اللائي نادرا ما يغطين وجوهن .

(مويا! بارد!) (مويا! بارد!) كان الرجل يصرخ طالبا إناء من الماء البارد باللهجة التهامية حيث تعد جرار الماء المعلقة على ظهور الجمال المصدر الأساسي للمياه العذبة في الحديدة ، فالبيوت التي تواجه الحرارة الشديدة و تطل على البحر الأحمر بشرفاتها الخشبية (المشربية) المغطاة بسعف

[٢٦] مدينة في محافظة البقاع اللبنانية و تشتهر بمهرجاناتها الفنية و الثقافية و السياحية منذ عام ١٩٥٣حتى وقتنا الحاضر (المترجم) .

النخيل حيث لفت إنتباهي النقوش المزركشة على واجهاتها و المأخوذة من الطراز الهندي[٢٧].

قادني مايكل نحو مكتب مزدحم لتصدير البن يديره محمد علي إدريس دفلع حيث بدأت الأعمال التجارية تتقدم و تتطور هناك ، كان الطابق مغطى بعبوات ملونة من عينات الحبوب التي يتم إحضارها التجار من الجبال ، محمد علي هذا كان رجلا أسود البشرة طويل القامة ذو ملامح قاسية و إبتسامة بريئة يرتدي زي أهل الحديدة التقليدي المكون من فوطة (معوز) مزخرفة و قميص نظيف للغاية مما يدل على علو مكانته ، و كان يعرض علينا جودتها عبر إختيار نصف دزينة من البن المطحون في أقل من خمس دقائق و بالسعر الذي يرضي جميع الأطراف حيث حسبها إبن أخيه بحوالي ٣٥٠ ريال (١٧٥ دولار) لكل ١٥٠٠ طن ، و بعد ذلك ذهب التجار القادمين من الجبال لتفريغ جمالهم عنده (كل عام يحضرون إلينا بنا أقل من العام الذي قبله ، اليوم تصدر اليمن أقل من نصف إنتاجها للبن ، و قد حدث ذلك الأمر في زمن والدي ، إنه القات يا سيدي القات ، أي نعم يمكن للمزارعين

[٢٧] يبدو أن المؤلف لا يعرف شيئا عن المشربيات التي كانت تزين واجهات المنازل في الحديدة و غيرها من مدن البحر الأحمر التي كانت مصنوعة من الخشب و ليس من سعف النخيل ، فضلا عن أنها مصرية الأصل و ليست هندية الأصل كما يزعم و نقوشها وفق الطراز المصري فحسب (المترجم) .

جنـــي محاصـــيل ثلاثـــة مواســـم مـــن الـــبن ســـنويا إلا أن القـــات يظـــل تجـــارة مربحـــة حتـــى هـــذه اللحظـــة ، و مـــا يميـــز الـــبن اليمنـــي عـــن غيـــره مـــن الأنـــواع الخارجيـــة هـــو أنـــه لـــم يفقـــد جودتـــه العاليـــة ، تعـــال سأريك شيئا) .

تتبعتـــه عبـــر الســـلالم حيـــث هنـــاك العديـــد مـــن الغـــرف الداخليـــة المترابطـــة ببعضـــها الـــبعض مـــع شـــرفاتها المغطـــاة بـــالبن حتـــى الســـقف بيـــد نســـاء ســـمراوات يقمـــن بغســـل و تنقيـــة حبوبـــه مـــرارا و تكـــرارا بهـــزهن فـــي ســـلال مســـطحة ، بعضـــا مـــنهن يعتنـــين بالأطفـــال عنـــدما يعملـــن و الـــبعض الآخـــر يقهقهـــن و يتنـــدرن و يشـــتركن فـــي جـــرش الحبـــوب اليـــدوي الـــذي بـــدا كـــتلاطم حصـــى فـــي ســـقف مـــن الصـــفيح فـــي ذلـــك الوقـــت ، قـــادني محمـــد علـــي صـــوب صـــندوق معلـــق للتخـــزين يحتـــوي علـــى بـــن تـــم إحضـــاره مـــن الجبـــال و غـــرف منـــه غـــرفتين و تفحـــص حبوبهـــا التـــي عكســـت نكهـــتهن الخاصـــة علـــى عينيـــه الفـــاحمتين (هـــذا الـــبن اليمنـــي الحقيقـــي مـــن مناخـــة[٢٨]، لا يوجـــد أفضـــل منهـــا فـــي العـــالم قاطبـــة) ، و قبـــل مغـــادرتي كانـــت ضـــيافتي رهـــن إشـــارته حيـــث قـــدم لـــي فنجانـــا محـــروق و مطبـــوخ بـــنفس الحبـــوب التـــي رأيتهـــا قبـــل قليـــل ، فتـــذوقت هـــذا التحضـــير العربـــي للـــبن الأفضـــل مـــن نوعـــه فـــي جميـــع أنحـــاء الشـــرق الأدنـــى ،

[٢٨] منطقة في محافظة صنعاء و من أهم مديرياتها حراز التي تقطنها أقلية منتمية إلى الطائفة الإسماعيلية (المترجم) .

و قد كنت أظن من قبل أن أفضل أنواعه هو ما يتم تحضيره على الطريقة الغربية قبل أن أتناول رشفة واحدة منه أقنعتني بأن محمد علي كان على حق .

آليات حربية تمر من خلال الحديدة

يشعر المرء حول الحديدة بهيمنة الجانب الشيوعي فيها ، فهذا الطريق السريع الممتد من صنعاء إلى الحديدة قامت ببنائه الصين الشيوعية ، و يقودنا أيضا إلى المطار التي تقلع منه طائرات ام اي جي النفاثة التابعة لسلاح الطيران المصري إلى ميناء رأس الكثيب التي قامت ببنائه روسيا حيث تنطلق منه سيارات الجيب الروسية و شاحنات رمسيس[٢٩] المصرية المحملة ببراميل الجاز الحمراء و الجنود ببنادقهم الرشاشة و قطع غيار الأجنحة للطائرات المقاتلة في صنعاء ، عرفت لاحقا أن هذه الإمدادات القتالية الحديثة العهد لشن حرب ضد رجال القبائل الملكيين ، ماذا سيكون عاقبة هذه التدخل ؟ أنا مندهش من تحصن الحكومة الجديدة خلف أسوار المدن الرئيسية ![٣٠] لا شك أن مصر قد زادت من حجم قواتها المسلحة من ٢٠ ألف جندي إلى ٣٠ ألف جندي

[٢٩] سيارات مصرية الصنع منذ عام ١٩٥٩م قبل إغلاق مصانعها إلى غير رجعة عام ١٩٧٢م (المترجم) .

[٣٠] سر عداء المؤلف للنظام الجمهوري و ثورته السبتمبرية الخالدة ينبع من تحالفهم مع مصر المحكومة من قبل الرئيس جمال عبدالناصر العدو اللدود لحلفاء بلده أمريكا أنذاك السعودية و الأردن و إسرائيل فحسب بمنطق ليس حبا في زيد بل كراهية في عمرو (المترجم) .

بأسلحتهم الحديثة في اليمن ، و لكن إلى متى يمكن لمصر أن تنفق ربع مليون دولار على قواتها المتواجدة هناك في الوقت الحاضر ؟ و هل بإمكان المصريين تدريب جيش من المتطوعين و غير مدرب للدفاع عن الجمهورية الفتية قبل أن تنسحب ؟[٣١] بمعنى آخر ، الإمام و أتباعه لا يزالوا يتجمعون في قسم كبير من الجبال العالية في الريف حيث دباباتهم و طائراتهم متواجدة هناك كدعم غير مشروط من قبل السعودية ، فعندما إتفقت السعودية على وقف دعمها للملكيين و مصر على الإنسحاب من اليمن مازال ٢٠٠ رجل من بعثة مراقبي الأمم المتحدة يسجلون في تقاريرهم إستمرار خروقات إتفاقية السلام في تزايد من قبل الطرفين في كل مكان في هذه الصحراء الواسعة[٣٢] .

مذياع ترانزستور : جهاز المستقبل ؟[٣٣]

في آخر يومي لي في صنعاء ظل المطر يخيم و يتساقط بغزارة عليها خلال شهر إبريل حيث سرعان ما إنتقل إلى شوارعها و

---

[٣١] يبدو أن المؤلف تجاهل هجوم رمضان الشهير الذي قاده الجيش المصري ضد رجال القبائل الملكيين و إنتصر عليهم و أجبرهم على الفرار من بلادهم و جعل اليمن كاملة تحت سيطرة القوات الجمهورية عام ١٩٦٣م قبل أن تسوء الأوضاع في البلاد عن طريق قائده المشير عبدالحكيم عامر عام ١٩٦٥م (المترجم) .

[٣٢] مازال المؤلف يصف اليمن بالصحراء رغم علمه علم اليقين بأن ٨٠% من أراضيها زراعية خضراء و أن الصحراء محصورة ما بين محافظتي مأرب و الجوف (المترجم) .

[٣٣] يبدو أن المؤلف معلوماته قديمة ، فلم يعد المذياع جهاز المستقبل بعد إنتشار أجهزة التلفزيون في أنحاء العالم في ستينات القرن العشرين (المترجم) .

أصبح سيلا جارفا يحاصر بيوتها الطينية ، فهربت نحو سقف يقيني من المطر و بجانبي جندي يمني من المشاة خلال مناوبته يدير المذياع الياباني الصنع صوب إذاعة صنعاء و تارة إلى إذاعة عدن و تارة أخرى إلى إذاعة إثيوبيا لسماع آخر الأخبار .

حتى قيام الثورة كان هناك عدد قليل من أجهزة المذياع في اليمن ، و كانت إذاعة صنعاء لا تقدم سوى خطب الإمام فحسب ، و الآن و حيثما تذهب ستجد كل شخص أمامك يحمل على كتفيه الماركوني[٣٤] أو المذياع ، و ما إن توقف المطر حتى أدار الجندي إذاعة القاهرة و علق المذياع على خنجره و وضعها قرب سوق القات أثناء مضغه التقليدي للقات في العصر .

و أخيرا و قبيل رحيلي من هناك فكرت بكل شئ حدث لي فيها ، فلقد كانت اليمن إلتقاء القرن العشرين بالعصور الوسطى ليس في قلب المعارك بل في القرى العالية بالجبال الشاهقة و خلف أسوار مدن القرون الماضية التي عفا عليها الزمن و في المرافئ الضحلة و على طول السهول الخضراء ، ما أشبه الليلة بالبارحة .

[٣٤] نسبة إلى مخترع المذياع الإيطالي ماركوني (المترجم) .

هـــل يمكـــن تحقيـــق نصـــر شـــريف و واضـــح ضـــد الملكيـــين ؟ غـــادرت الـــيمن و أســـئلة كثيـــرة تـــدور فـــي رأســـي قـــد أنتظـــر أجوبتهـــا العاجلة في الغد ، من يدري ؟

(النهـــايـــة)